

عبد الرحمان بن خلدون

مؤسس علم الاجتماع

"اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. و الأنبياء في سيرهم. و الملوك في دولهم و سياستهم. حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين و الدنيا." فالتاريخ الذي ارتقى به ابن خلدون إلى مرتبة العلم و الفلسفة ليس مجرد أخبار تتناقلها الأجيال، إنما هو منهل للعلم والفائدة. وتاريخنا على وجه الخصوص يزخر بالرموز الفكرية والعلمية التي يجب أن تكون لنا خير قدوة. وعملا بهذه المقولة من كتاب المقدمة، سنخص ابن خلدون بالاهتمام في هذا المقال.

هو عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس (افريقية) عام 732 هـ. كان عالما بأتم ما للكلمة من معنى في ذلك العصر فقد كان رجل دولة استراتيجيا، عسكريا، فيلسوفا، مؤرخا، فقيها حافظا، عالم بالرياضيات و الإقتصاد. ترك تراثا علميا زاحرا بالمعارف، و لعل أهم مؤلفاته "كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في معرفة أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وهو الكتاب الذي اشتهرت مقدمته على وجه الخصوص وأصبحت تعرف بمقدمة ابن خلدون. وقد ضمّن ابن خلدون هذا المؤلف عصارة علمه ومعرفته ليؤسس لعلم جديد وهو "علم العمران البشري"، أو ما أصبح يسمى بعلم الاجتماع. فقد درس أسباب و غايات العلاقات بين البشر وكيفية تطورها وتغيرها عبر الزمان والمكان، موضحا بذلك أبرز قواعد السياسة والتداول على الحكم وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها.

كما أبرز كيفية تأثير البيئة على طبائع البشر واضعا بذلك أسس علم الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا الحديث. وقد استمد ابن خلدون معارفه من دراسته المعمقة للتاريخ، مما مكّنه من وضع قواعد علمية تسمح بتحليل تطور تاريخ الشعوب بطريقة منهجية تقوم في الأساس على مبدأ السببية، بحيث أن كل تغير يطرأ على مجتمع ما، ما هو إلا نتيجة لحدث سبقه، وهو بدوره سيكون مسببا لحدث يليه. وهكذا أصبح التأريخ علما ممنهجا يخضع لقواعد دقيقة، وفي ذلك قطع مع ما كان متعارفا عليه في تدوين التاريخ حيث كان الاعتماد على النقل دون العقل.

اعتبر ابن خلدون طفرة في عصره، إذ أن الزمان الذي عاش فيه كان يعتبر بداية عصر المخطاط الدولة العربية الإسلامية على المستوى الفكري خاصة. إذن فقد كان نبوغه نتيجة لاجتهاده وعمله على تحصيل العلم رغم أن الظروف كانت صعبة. فقد درس بجامع الزيتونة المعمور كما أنه هاجر إلى عديد الأقطار كالمغرب والجزائر ومصر حيث توفي، واشتغل بالتعليم والسياسة والقضاء. ثم اعتزل الحياة الاجتماعية بعد العديد من التجارب المليئة بالصراعات ليتفرغ لكتاباته.

ما يمكن أن نستخلصه من تجربة هذا العالم الجليل، هو أنه لا مجال لترقب الظروف التي قد تُشجّعنا أو تحفزنا على الإبداع في العلم أو أي مجال آخر، وأنه لا مجال للتعلل بالضعف الاقتصادي أو تردّي الوضع السياسي لبلداننا كي نستغنى عن قدراتنا ونحد من تطوراتنا. فأول عائق أمام الريادة والإبداع هو عقدة النقص وثقافة "لا نستطيع".



27 ماي 1332-19 مارس 1406

- عمل بالتدريس في جامع الزيتونة
- عمل بالتدريس بجامع القرويين بالمغرب
- عمل بالتدريس بالجامع الأزهر
- تولى القضاء المالكي بمصر
- عين وزيرا لدى سلطان بجاية أبو عبد الله الحفصي.

لا شك لدي في أن مقدمة ابن خلدون هي الأعظم في هذا المجال من العلم وهي أفضل ما أنتج من قبل أي عقل في أي زمان وأي مكان

(المؤرخ البريطاني آرنولد جوزف توينبي)

